تاريخ استقبال المقال: 2016/07/8 تاريخ قبول نشر المقال:2016/09/26 تاريخ نشر المقال: 2016/12/01

النظرية السوسيولوجية بين التمثُّل الفكري لأساتذة علم الاجتماع و الممارسة الواقعية ..■

أو الوجه الآخر لديمومة أزمة علم الاجتماع في المجتمع الجزائري

د. نورة قنيفة جامعة أم البواقي الجزائر

guenifa2013@live.fr

ملخص:

سنحاول من خلال هذه الورقة العلمية طرح مجموع إشكالات معرفية على علاقة مباشرة بالإشكال الأكثر أهمية و المتمثل في النظرية الإجتماعية و تمثّلاتها لدى أساتذة علم الإجتماع من خلال دراسة استطلاعية ، لنحاول في النهاية تقديم جملة معطيات معرفية تُعيدنا إلى طرح نوع من التفكيرية reflexivité على المنتوج السوسيولوجي في علاقته بالنظرية الإجتماعية، و بالتالي تقديم اقتراب تحليلي لمجموع التزامات معرفية نعتقد أنه من الضروري توفّرها حين يراد طرح إشكال واقع النظرية الإجتماعية في علاقته بالممارسة السوسيولوجية

الكلمات المفتاحية: البحث السوسيولوجي، النظرية الإجتماعية ، التمثّل الفكري

The sociological theory between the intellectual assimilation of sociology teachers and realistic practice…

Or the other side of the permanency of sociology crisis in the Algerian society

Abstract :

In this paper we attempt to expose some problematic knowledge directly related to the most important problem that is the social theory and its representations to sociology teachers through a prospective study. In the end, we try to provide cognitive data that bring us to put up a kind of reflexivity on the sociological product in its relationship to the social theory. In providing an analytical approach to some cognitive commitments, we believe it is necessary to be provided while intended to expose the problem of the social theory reality in relation to the sociological practice.

Keywords: sociological research, social theory, intellectual assimilation

مقدمة

في وضع فكري خاص و مميّز تحدّث **ألفن جولدنر** عن الأزمة القادمة لعلم الإجتماع الغربي من خلال ملامسته لواقع الممارسة السوسيولوجية..فإن كان هذا وضع علم الإجتماع في العالم الغربي ، وضع لعلم متأزّم فماذا عن وضع علم الإجتماع في العالم العربي و في الجزائر بشكل أخص أمام محاولات دائمة لتحقيق ممارسة سوسيولوجية أكثر يقينية، وأكثر قدرة على حل المشكلات و الظواهر الإجتماعية بصيغ معرفية متنوعة بدءا بالتوكيدات و وصولا إلى الينبغيات، و أمام قدراتها الاّمنطقية في تقديم البدائل دون أدنى وعي بخصوصية المجتمعات المحلية الجزائرية، و لعل الأكثر خطورة تلك المتعلقة ببعدها الثقافي..

لقد تبين لنا في دراسة سابقة أن الممارسة السوسيولوجية كثيرا ما كانت محدودة جدا في مواقع معرفية متعددة لأن فاعليها تميّزوا بتوقّفهم الأكيد عند حدود الطرح الكلاسيكي القديم إن كان الماركسي أو الوظيفي بالخصوص، ليتحول الإنتاج المعرفي، و دون الإقتراب من الواقع الحقيقي، إلى ما يسميه الباحث المغربي عبد الصمد الديالمي بالسوسيولوجيا السعيدة القادرة على حل كل المشكلات..[1]

كما تبيّن لنا في دراسة ثانية محدودية البحث العلمي السوسيولوجي الذي كثيرا ما تعايش مع وهم الإستهلاك المعرفي دون أدنى وعي بخطورة الإنتاج المعرفي الذي قد يتحول في كثير من الوضعيات" **و هو الواقع** " إلى مجرد تأدية واجب للحصول على شهادة أرقى..و لتعكس تلك الأبحاث و هي " مكدّسة ومهمّشة " في مكتبات الجامعات أزمة علم الإجتماع المعرفية ، و أزمة الإنتاج المعرفي ، و العجز عن تقديم بدائل نظرية أو حتى مقاربات..[2]

قد يستلزم هذا الوضع في اعتقادنا إعادة النظر في نوعية الممارسة السوسيولوجية المعتمدة لأهميتها، والأهم في مدى وعي فاعليها بالنظريات الإجتماعية و قدراتهم المعرفية على تقديم إسقاطات واقعية مع مراعاة الخصوصية الثقافية لمجتمعاتهم المحلية،منبعها الأول واقع إجتماعي معطى فعليا ومتجدد باستمرار،يُعاد بناؤه إنطلاقا من علاقة مباشرة بين السوسيولوج و المجتمع بوسائط فكرية نظرية، وبقراءات معمّقة لها بعيدا عن الجاهزية و الإستهلاك..

في نفس الاطار المعرفي سنحاول تقديم ورقة علمية نهدف من خلال مضامينها إلى طرح إشكالات هامة جدا من خلال جملة محددات معرفية نعتبرها محركات بحثية أساسية أهمها واقع الممارسة السوسيولوجية في الجامعة الجزائرية في علاقتها بالنظرية السوسيولوجية و التي تعكس بعدا من أبعاد الوضع المعرفي السوسيولوجي الجزائري الذي يتطلب دراسات معمّقة جدا لتحليله و إعادة طرح واقعه المعرفي .. لنحاول في النهاية تقديم جملة معطيات معرفية تُعيدنا إلى طرح نوع من التفكيرية reflexivité على المنتوج السوسيولوجي في علاقته بالنظرية الإجتماعية و بالتالي تقديم اقتراب تحليلي لمجموع التزامات معرفية نعتقد أنه من الضروري توفّرها حين يراد طرح إشكال واقع النظرية الإجتماعية في علاقته بالممارسة السوسيولوجية..

أولا : علم الإجتماع في الجامعة الجزائرية و أزمة الوجود المعرفي:

يعرف حقل العلوم الإنسانية و الإجتماعية جملة من التحوّلات التي لا يمكن فهم عمقها من دون الرجوع إلى تاريخ التقاليد الأكاديمية في الوطن العربي التي أفرزت تراكما معرفيا أصبح في تصادم و تنافر مع التحولات السياسية، الإقتصادية، والإجتماعية التي عرفتها و تعرفها المنطقة، و التي أدّت إلى فرض منطق غير متّفق عليه لمهام المؤسسات الجامعية ومقاصد البحث العلمي الذي خرج عن منطق التقاليد الأكاديمية الصارمة التي يمكن أن تساعد على بناء فضاء مشترك للبحوث في ميادين العلوم الإنسانية و الإجتماعية خارج إطار الإكراهات الخارجية التي تحول دون الدخول في العالمية بقوة البحث العلمي، ومن ثم الإفلات من الإطار التكويني الذي حوصرت فيه مهام الجامعة وفق منطق سياسوي، إقتصادوي، و تكنولوجوي(économisme,technologisme) نفعي ضيق الأفق.

هذا المنطق النفعي جعل العلوم الإجتماعية و الإنسانية بصفة عامة ينظر إليها نظرة دونية ، إن كان على مستوى رسم الإستراتيجيات العامة للتعليم العالي أو البحث العلمي و مشاريعه التي أصبح يغلب عليها الطابع التقني المفرط على حساب المعرفي الأساسي في كل تجلياته النظرية و التطبيقية.[3]

فإذا اتفقنا أن وظيفة الجامعة الأولى هي إنتاج و نشر المعرفة، فإن هذه الوظيفة قد عرفت في حال العلوم الإجتماعية ضغطا إجتماعيا و سياسيا تمثّل في التدخل المؤسساتي الذي حال دون احترام المقاييس العلمية في إنتاج المعرفة،إذ توجّه كل الإهتمام إلى تحقيق مبادئ سامية تمثلت في الجزأرة،التعريب و ديموقراطية التعليم،دون احترام قواعدها أو الآثار التي يمكن أن تنجم عنها. و يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

1. لم يعد النشاط البحثي الخاص بكل أستاذ أساسا و قاعدة للتقييم و الإعتراف بالكفاءة في المؤسسة ، و بالمقابل بدأ الإستغناء التدريجي عن الكفاءات الخارجية التي سبق و تم الإستعانة في بداية الاستقلال مما ترك فراغا ملحوظا في متانة التكوين أو حتى مصداقيته ليتحقق بعد ذلك ما يسمى بالسوسيولوجيا الوطنية

2. تجلّت إنعكاسات التعريب في بعدين هامين أولهما إعتبار علم الإجتماع علما رياديا أوكلت له مهمة إسترجاع عناصر الهوية الوطنية والثقافة العربية الإسلامية،وهذا ما أطّر دور عالم الإجتماع الذي اعتبر مناضلا قياديا يشرف على توظيف معرفته لخدمة التنمية الإجتماعية التي يتطلع لها المجتمع لبناء مشروعه الحضاري ..[4]

إنه لوضع يؤسف له، عندما لا نجد علم الاجتماع يلقى الأهمية التي تليق به في وضع البرامج و تناول أهم القضايا الاجتماعية، مع تدهور وضعيته في الجامعة الجزائرية، و التي انبنت على فلسفة تمنح العناية القصوى للعلوم الطبيعية والتكنولوجية،فلا يخفى على أحد أن هذه الفلسفة كانت خيارا سياسيا تم الإفصاح عنه في المناسبات المهمة،فهل حقيقة علم الاجتماع هو علم يقلق ؟ و يتم التحفظ حوله كلما تحول إلى أداة نقد وتحليل؟ مع السعي إلى تطويعه لتحويله إلى أداة تقنية ومرآة مطوعة، أو يؤتى به لكي يتماها مع خيارات سياسية أو مع خطاب أخلاقي يخفي الحقيقة الكامنة وراء التناقضات التي يعانيها المجتمع، والتي

قد يذهب تحليلها والكشف عنها إلى وضع اليد على مكمن الخلل الذي قد يعيد النظر في نظام الأفكار والأشياء ...[5]

ثانيا: علم الإجتماع و الممارسة البحثية بين اغتراب الذات الباحثة و تناقضات المجتمع العميقة

إستهلت إحدى الباحثات في موضوع شائك جدا له علاقة مباشرة بواقع الممارسة السوسيولوجية في الجامعة الجزائرية بحثها بالفقرة التالية :" **تعد التجربة السوسيولوجية في الجزائر ظاهرة بحد ذاتها، و هذا يظهر من خلال نتاج هذه التجربة المتمثل في البحوث المنجزة على مستوى قسم علم الاجتماع**" [6]

هو واقع حقيقي يعكس إنتاجا معرفيا ضخما تنتجه أقسام علم الإجتماع " أو"العلوم الإجتماعية " في الجامعة الجزائرية سنويا، و لكن الإشكال الذي يُطرح دائما أمام هذا الكم هو مدى مساهمة ما يقدم في تنمية المجتمع من خلال الإقتراب الواقعي، و نوعية المعارف المعتمدة التي تتضمنها مختلف الأبحاث، و هل فعلا مضامينها أسّست لفعل بحثي حقيقي..؟؟ و قد يقودنا هذا التساؤل الذاتي البحثي لتساؤل أعمق مرتبط بواقع الممارسة السوسيولوجية في الجامعة الجزائرية،واقع كثيرا ما تمّ استعراضه و الحديث عنه في مناسبات علمية متعددة و أبحاث بعضها منشور و الكثير منها"مكدّس" في المكتبات الجامعية لتظل الصورة السائدة في الأذهان لدى الكثيرين هي صورة البحث السوسيولوجي الهش البعيد عن الواقع، الغير مستوعب، و الغير قادر نهائيا على تحقيق مشروع تنموي واقعي ، بل و لعل الأخطر الأكثر تهميشا رسميا..

منذ أكثر من عقدين طرح الباحث الجزائري عنصر العياشي تساؤلا نعتبره هاما جدا عكس واقعا معرفيا لا نزال نعيشه لحد الآن و نتعايش معه بكل حالاتنا، **حالة الوعي، حالة الإغتراب، حالة التجاهل، حالة الضعف المعرفي..**، هو : **أزمة أم غياب علم الإجتماع ؟**

فبين الأزمة و الغياب و ربما الأكثر خطورة حاليا " التغييب"السوسيولجي السياسوي" بممارسات تعسّفية بدءا بإدماجه مع " علوم إجتماعية" أخرى أفقدته خصوصيته المعرفية و وجوده الجامعي كعلم قائم بذاته ليتحول إلى تابع غير مرغوب فيه ، و في ذيل الترتيب ، و أخر "التخصصات" طلبا لدرجة أن القادمون إليه أكثرهم مرغمون أو مجبرون و ربما أيضا تغييب إرتبط بفاعليه و المنشغلين بالحقل المعرفي الذين تعايشوا مع الوضع لدرجة الإنسياق أمام العجز الحقيقي عن تغيير وضع سياسوي معرفي بامتياز...

في نفس السياق، أكد جمال معتوق أن السوسيولوجيا في الجزائر بقيت بعيدة عن واقع البيئة الاجتماعية، و لم يكن هناك تجاوب مع المشكلات التي كانت تعيشها البلاد كالبطالة و الفقر، و مشكل التنمية ، و مشكل الحريات و غيرها من القضايا، وكان علم الاجتماع حكرا على الحقل البيداغوجي، كما يُعد توجّه ثقافي موجود في البنية الدينية للمجتمع الجزائري لأن الدولة تبنّت حركة تنموية في منتصف الثمانينات معتمدة على التصنيع و بناء تكنولوجيا، ومن أجل إحداث تغيّر و وثبة اقتصادية في البلاد، لذلك كان الاهتمام بالعلوم التكنولوجيا في المقابل بقت العلوم الاجتماعية و الإنسانية كمراقب سلبي للإختلالات الناتجة عن

زيادة الاهتمام بالتكنولوجيا، ومن أهم أسباب نقص الإهتمام بميدان العلوم الاجتماعية وعلى رأسها علم الاجتماع نذكر منها :

* اتهام السوسيولوجيين بعدم قدرتهم على الاشتغال على مشكلات المجتمع.

* محاكاة حلول المشكلات الغربية بالرغم من اختلاف البيئات الاجتماعية.

*الجهل بواقع المجتمعات من قبل المشتغلين بالسوسيولوجيا.

* الاغتراب عن هذه المجتمعات.

*تكريس اللاّمساواة بين العلوم.

* إهمال الخصوصية الثقافية للمجتمعات العربية .[7]

ثالثا) أزمة الأنا الباحثة و هيمنة الآخر التنظيري:

إذا كان تعدّد المنطلقات النظرية و مناهج البحث في العلوم الاجتماعية الغربيّة يمثّل نوعاً من الأزمة و الفوضى العلمية (باعتراف أغلب المختصين)، فإن المشكلة أشدّ وطأة في البلدان النامية ، و منها المجتمع العربي ، حيث تجاوز الجدل بين المشتغلين في علم الاجتماع دائرة الاختيار بين علم الاجتماع الوضعي أوالإنساني أو الماركسي و اتجه ليطرح بديلاً إضافياً يتمثّل في التطلّع نحو صياغة نظرية سوسيولوجية وطنية، لها طابعها المتميّز الناتج عن خصوصية هذه المجتمعات. فلقد ثار جدلٌ طويل بين علماء الاجتماع حول هذه القضية، وطُرح التساؤل التالي: هل ننقل عن المشتغلين بعلم الاجتماع في الغرب أو الشرق، أم نطوّر نظرية جديدة في علم الاجتماع قادرة على خدمة البلدان النامية في معاركها ضد التخلف والفقر والتبعية؟..[8]

يظل إشكال التنظير و توضيف النظريات أساسيا في الكثير من الأبحاث السوسيولجية الأكداديمية أين يبرز و بشكل واضح و ملفت للإنتباه ذلك الكم الهائل من المعارف النظرية المستقاة، و التي قيّدت حدود التفكير المعمق و الجاد، وجعلت من الممارسة البحثية للذات الباحثة الجزائرية أقرب إلى الإستهلاك و التقليد باعتمادها الإطار الفكري للآخر المقولب والجاهز بترسانته المفاهيمية القوية التي قد نعجز عن فهمها أواستعابها أو حتى نتساءل عن وجودها في موضع بحثي معين..ليُطرح إشكال أكثر عمقا تحدّث عنه أنور مقراني والمتمثل التأويل السوسيولجي، "إذ لا يختلف حسبه اثنان مشتغلان في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية في أن الهدف الرئيس لكل نشاط بحثي إنما هو في حقيقة الأمر محاولة لإعطاء أجوبة لكل الاستفهامات والأسئلة الواقعة فيه. من هنا يتوقف رأي الجمهور العلمي على انتظار ما ستقدمه هذه العلوم من معرفة جديدة حول سياق سوسيواقتصادي، تاريخي أو إنساني معين.

إن التراث السوسيولوجي الغربي ملهمُ كثيرٍ من الباحثين، لا يمكن أن ننفي مساهمته الكبيرة في تطور علم الاجتماع الغربي في القرن العشرين، و علينا أن ننظر إليه ليس باعتباره تصوراً يختزل الواقع الاجتماعي

الغربي في شكل عالمي إستاتيكي يجوز البناء عليه، و إنما تفعيله بشكل يراعي الخصوصيات المحلية و يقدم تأويلات مناسبة بدل أن يأسر الواقعات الاجتماعية في القوالب النظرية السوسيولوجية ، ليكون البحث هو حول التطابق بين النماذج والظاهرة الاجتماعية، بدل التفكير في وجه المساعدة والفهم الذي يمكن أن تمده النظرية الغربية لمساءلة الواقع الحالي الذي لا بد أن يكون في صلب مهنة عالم الاجتماع .. وعليه أن يدرك أن إنتاج المعرفة السوسيولوجية هو مهمة تاريخية و تفكيرية موكلة له، وأنه مطالب في هذه اللحظة بأن يقدم الدليل بأنه بحق يُسائل زمانه... [9]

يضيف عبد الرزاق أمقران أن السوسيولوج في الجامعة الجزائرية لا يكتب لأنه باعتقاده لا يرى نفسه رجل قطيعة بل امتداد لتوقّعات مجتمعية أنكر عليه طموحه للسمو إلى صورة غير الصورة التي يحدّدها له المجتمع، و إذ يفعل ذلك فإنما يحدث القطيعة مع الفرع المعرفي الذي من المفروض أن يكون سفيرا له. المجتمع بطبيعته يدرّب الأفراد على تقبّل الأحداث والظواهر والقضايا المحورية على أنها مسطّحة مرئية ومفهومة وغير قابلة للمسائلة، وهذا أمر يتلقّفه أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الجزائرية بوعي غائب و بتبعية صارخة و فكر مسلوب.. أما عن حياده المعلن فهو مصطنع و مغلط. يعلن"حياده" تجاه الفرع المعرفي و قضايا الوطن و العالم و لا يتحرج من ذلك على الإطلاق، فالوثائق الرسمية تثبت بأنه أستاذ جامعي في علم الاجتماع فيكتفي بذلك و لا يحاول أبدا تخطّي التعريف الإداري. بل لماذا يسمو إلى مرتبة أسمى و المجتمع لا يتوقع منه أكثر من أن يعلن ذوبانه فيه أي الذوبان في السطحية و ما هو شائع و مقبول ...[10]

رابعا ما ذا تعني النظرية الإجتماعية للسوسيولوج الجزائري، و ما واقع تطبيقها في البحث؟

تبلورت النظرية الإجتماعية كوحدة أساسية في بناء علم الإجتماع، و يمكن القول بأن الإختلاف الرئيسي بين الفكر الإجتماعي و علم الإجتماع يتمثّل في امتلاك الأخير لثلاث مكونات، و العلاقة بينها منتظمة و واضحة، النظرية و المنهج و الظواهر أو الوقائع التي تشكل إطار بحث العلم. وفي هذا الإطار تعتبر النظرية أكثر هذه المكونات الثلاث أهمية لاعتبار أنها هي التي تحدّد الظواهر موضوع الدراسة، ثم هي التي تحدّد أكثر المناهج ملائمة لدراستها. كما أن هناك علاقة وظيفية بين هذه المكونات الثلاث، حيث تتناول هذه المكونات الأداء الوظيفي فيما بين بعضها البعض، فبالنسبة للمنهج تحدّد النظرية المنهج الأكثر ملائمة لدراسة الظاهرة ، ثم هي التي توفر الفروض التي تشكّل أحد عناصر المنهج العلمي، بل هي العنصر الذي يوجّه عمليات البحث الواقعي، ثم هي التي تمتلك القضايا القادرة على تفسير المعطيات التي قد ترد من الواقع من خلال المنهج، ثم هي بين هذا و ذاك تقدّم الإطار الذي بالنظر إليه يمكن تصنيف و تحليل المعطيات[11]

وعموما فإن الهدف الأساسي للنظريات الإجتماعية هو دراسة أنواع السلوك الإجتماعي بغية تفسيره و التنبؤ به، و يقصد بالتفسير هنا فهم السلوك البشري الذي حدث في الماضي بمعنى إيضاح ما حدث للظاهرة في الزمن الذي انتهى بكتابة النظرية، كما يُقصد بالتنبؤ توقع السلوك البشري الذي ينتظر أن يحدث مستقبلا أو

بعبارة أخرى ما يتوقع أن تكون عليه الظاهرة بعد كتابة النظرية. هذا و كلما زادت قدرة النظرية على تفسير السلوك الإجتماعي و التنبؤ به كلما زادت فائدتها و قيمتها العلمية.[2]

تحتل النظرية مكانة متميزة في علم الإجتماع و في كل العلوم ، فالنظرية هي مجموعة من القضايا التي تتوافر فيها الشروط التالية :

أولا : ينبغي أن تكون المفاهيم التي تعبر عن القضايا محددة بدقة

ثانيا: يجب أن تتفق القضايا الواحدة مع الأخرى

ثالثا: أن توضع بشكل يجعل من الممكن اشتقاق التعميمات القائمة إشتقاقا إستنباطيا

رابعا:أن تكون هذه القضايا خصبة و مثمرة ، تستكشف الطريق لملاحظات أبعد مدى ، و تعميمات تنمي مجال المعرفة [13]

يعكس هذا الطرح الأهمية العلمية للنظرية السوسيولوجية مهما كان التوجه الفكري الأيديولوجي لها لأنها في النهاية تمثل قالب فكريا هاما ، و لهل هذه الأهمية هي التي دفهتنا إلى طرح سؤال – قد يحتاج إلى بحث معمق جدا حوله مستقبلا– على 12 باحثا التمسنا فيهم الجدّية الكبيرة و الالتزام الأكبر في محاولة دائمة لإنتاج معرفة سوسيولوجية – لنقل جزائرية – بالإضافة إلى الخبرة الطويلة في المجال البيداغوجي هو:" ما ذا تعني النظرية الإجتماعية للسوسيولوج الجزائري، و ما واقع تطبيقها في البحث فكانت تمثّلاتهم للتساؤل الهام جدا كالتالي:

1. تؤرخ النظرية الاجتماعية لدرجة نضج و تطوّر الفكر الإنساني في سياقات زمانية ومكانية كجواب على أسئلة مصيرية يطرحها الإنسان حول ذاته و العالم المحيط به.. و عليه فإن الذي لا يملك خلفيات حول أسباب ظهور تلك النظريات وغاياتها لن يستطيع توظيفها في سياقات قد لا تكون سهلة المنال. هنا أيضا يجب التنويه إلى أن المسألة تتعلق بقدرتنا على توظيف مكونات النظرية بعد الفهم في سياقات مغايرة.

2. تعكس اتجاهات تنظيرية ؛ تعمل بوصفها موجهات للبحث التطبيقي،

3. هي رؤية للواقع تسمح بترتيبه و إعادة تشكيله بطريقة منظمة و واضحة

4.هي تفسير للظواهر الاجتماعية و الواقع وفق رؤى نظرية قائمة على نسق معرفي من المفاهيم و المداخل المنهجية لرواد نظرية علم الاجتماع

5.مجموعة من القوانين ، الاقتراحات، الأفكار، و الآراء لتفسير و توضيح الواقع الإجتماعي، بمعنى أنها عبارة عن محاولة علمية للسيطرة على الظواهر الإجتماعية من خلال تصورات منطقية.

6.هي عماد البحث السوسيولوجي

7. تراث نظري يُستند إليه في البحث للتحكم في البحث وإعطائه مصداقية ومشروعية.

8.أداة تحليلية تتشكل من المفاهيم الجوهرية والمقولات المركزية والتطبيقات المنهجية التي تسهل على الباحث رسم الظواهر و بناء النماذج التحليلية المتماشية مع عناصر الواقع الاجتماعي المدروس

9.هي ما يجعل للفعل الإنساني و للظاهرة الإجتماعية في آخر المطاف معنى توجد من أجله، فهي ليست عشوائية تأتي من فراغ و تذهب إلى فراغ (أقصد الفعل الانساني و الظاهرة الإجتماعية)، هناك غايات و أسباب تؤطر السلوك الإنساني، و النظرية الإجتماعية على إختلاف مدارسها و توجهاتها تسعى إلى فهمها من جوانب مختلفة.

عكس إذا هذا التقديم المعرفي التصوري لمعنى النظرية الإجتماعية رغم اختلاف جوانب و أبعاد التعريفات و تنوعها باعتبارها منطلقات تصورية بحثية ، أهمية النظرية الإجتماعية باعتبارها قوة معرفية توجّه الفعل و الممارسة و التأويل و القراءات السوسيولوجية و ليس مجرد استهلاك لمضامين ، فهي ختلف..بناء معرفي ، أداة للفهم بترسانة مفاهيمية جاهزة ، ليبقى الإشكال الأكثر خطورة هو الإسقاط المعرفي لكل ما يطرح و يُقدّم من الآخر ..الآخر المختلف..المؤدلج..المتقدم ...

أما عن واقع تطبيقها في البحث السوسيولوجي الجزائري فقد أكد الباحثون على:

1.الغياب المطلق في البحث السوسيولوجي للنظرية لسبب واحد هو اختفاء رعيل السوسيولوجيين الذين كانوا متحكّمين في النظريات و ملكوا ملكات و كفاءة في تدريسها.. فحاليا النظريات لا تُدرس في الجامعة و ما يدرس لا يعدو أن يكون عناصر مؤسسة للنظرية.

2. واقعيا ليس ثمة ما يجعل الاهتمام بها ينمو و يرتقي، لأسباب كثيرة، أهمها أنها بعيدة عن خصوصيات الواقع الاجتماعي و لا تعكس درجة التطور فيه ، لكونها مستوردة من بيئة ذات خصائص سوسيو– ثقافية و اجتماعية و سياسية و أسس فلسفية مرتبطة بمحيط نشأتها.

3. ضحالة الإسهامات الجادّة و الأعمال المتميّزة على المستوى التنظيري مع إسقاط مباشر للنظريات الغربية و تطبيقها بصفة مباشرة

4.يمكن أن يكون الميدان أكثر فائدة و قراءة للواقع من الطروحات النظرية، و رغم ذلك لا وجود للبحث السوسيولوجي بالمفهوم الأكاديمي في الجزائر و إنما هناك محاولات لم تجد و لن تجد لها صدى عند دوي الإرادة السياسية

6. إن أغلب البحوث السوسيولوجية تظل سجينة رفوف المكتبات و خلاصات تبقى في الظل، و لا يستفاد منها إلا في إعادة إنتاج بحوث عقيمة و مشابهة، لكن هذا لا يعني أن الاجتهاد والإبداع السوسيولوجي لدينا قد استنفذ ذاته، بل على العكس من ذلك هناك اجتهادات قيمة وهناك أسماء تلمع من حين لآخر، وهناك باحثون يشتغلون في صمت، ويتصدون بكل بسالة لما يعتمل في رحاب المجتمع من قضايا وظواهر، وبمقابل ذلك كله تبقى هناك معطيات واقعية تقرر عدم الارتفاع ترتبط بالهاجس الأمني الذي

يغلف البحث العلمي في الجزائر وتتصل أيضا بمحدودية الإمكانيات المادية التي تمكن الباحث من إنجاز أبحاثه بقدر كبير من الاحترافية والموضوعية..

7. أن هناك هروب متعمّد من النظرية في البحوث، و ربما أن مرد ذلك الاستسهال و ضعف التكوين النظري للأستاذ المؤطر كما الطالب. أيضا عندما نتحدث عن النظرية علينا أن نتحدث عن ملمح الاختصاص بحيث لا نستطيع في كثير من الأحيان التمييز بين بحث في علم الاجتماع أو الصحافة أو الاقتصاد أو التاريخ. وهذا يطرح مشكلا في الحدود المعرفية التي تقطع بين هذه العلوم.

8. غير موظفة لأن كل البحوث هي بحوث إمبريقة تطبيقية لا ترتقي لاعتمادها على نظرية اجتماعية قائمة بذاتها

فالنظريات التي قُدمت في علم الإجتماع الكلاسيكية أو الحديثة منها ، لم تصمم في الأصل لتحليل المجتمع العربي عامة و الجزائري خاصة ، بقدر ما جاءت لتفسير ديناميكية المجتمع الغربي و تطوره و فاعليته ، ومنه فهناك تبعية لعلم الإجتماع الغربي و النظريات تطبق في البحوث الجزائرية رغم قصورها و أخطائها.

هذه الجزئية البسيطة جدا من تصورات للممارسة السوسيولوجية في علاقتها بالنظرية من جهة و بالواقع من جهة أخرى أكدت لنا من خلال قراءة أولية لمضامينها أن لإشكال الأساسي يبقى إذا في المحاولات الإسقاطية الدائمة –إن وُجدت – في الأبحاث و الدراسات السوسيولوجية الجزائرية لمعارف نظرية متجددة باستمرار يعمل الآخر على تطوير مضامينها وفق التغيرات و المستجدات الواقعية إيمانا منه بقدرتها على تقديم البدائل و تحقيق حد أدنى من التقدم ..

في المقابل و مثلما أوردته فئة قليلة جدا من الباحثين ،أننا فعلا نعيش أزمة معرفية حقيقية..أزمة إنتاج..أزمة إستهلاك دائم ..إغتراب معرفي ..عجز معرفي.. قراءات محدودة جدا... معارف مؤدلجة.. إنسياق شبه تام.. محاولات إقترابية محدودة ...

إن التغيرات التي يعرفها المجتمع الجزائري تتطلب أكثر من وقفة تأملية تحليلية لإفرازاتها السياسية.. الإقتصادية.. الإجتماعية و الثقافية و حتى الدينية... فإذا كان علم الإجتماع وليد ثورة غيّرت فكرا إجتماعيا و أنجبت آخر مختلف جذريا .. فإن ما حدث و يحدث في العالم العربي و في الجزائر واقع يدعو إلى الإلتزام المعرفي لتقديم إنتاج أكثر قدرة على استيعاب أو حتى تحليل و تفسير ما يحدث..

بقي أن نؤكد في النهاية أن ما تقدمنا به هو بداية بحث يتطلب منا أكثر من ورقة علمية..

الهوامش:

عبد الخالق، أحمد محمد (2000). مرجع سبق ذكره.

[1] أبو راسين، محمد بن حسن (2012). فعالية برنامج تدريبي مقترح لتحسين جودة الحياة لدى طلبة الدبلوم التربوي بجامعة الملك خالد بأبها. مجلة الإرشاد النفسي–مركز الإرشاد النفسي. (30). 137–234.

[1] جميل، سمية طه وعبد الوهاب، داليا خيري (2012). مرجع سبق ذكره.

[1] عبد الخالق، أحمد محمد (2008). الرضا عن الحياة في المجتمع الكويتي. *دراسات نفسية*. 18(1). 121-135.

[1] عبد العال، تحية محمد أحمد ومظلوم، مصطفى علي رمضان (2013). الاستمتاع بالحياة في علاقته ببعض متغيرات الشخصية الإيجابية "دراسة في علم النفس الإيجابي". *مجلة كلية التربية ببنها*. 2(93). 78-163.

[1].قنيفة نورة (2004) . الممارسة السوسيولوجية و تمثلاتها لدى اساتذة علم الاجتماع بجامعة سطيف، في علم الاجتماع و المجتمع الجزائري،أعمال الملتقى الوطني حول علم الاجتماع و المجتمع في الجزائر أية علاقات أيام 4–5–6 ماي 2002، دار القصبة للنشر

[2]. قنيفة نورة(2012) . البحث العلمي السوسيولوجي بين وهم الإستهلاك المعرفي و حتمية المقاربة الواقعية ، مقال علمي تم نشره في مجلة معارف،مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة البويرة (13).

3. عروس الزوبير.مدخل إلى تاريخ و واقع الممارسة السوسيولوجية : المدرسة المغاربية نموذجا، على:

www.caus.org.lb/PDF/EmagazineArticles/mustaqbal_400_arous%20zoubayer%20108-130.pdf

4.Hassan Remoun(1998) ;université,savoir et société ;le cas des disciplines sociales dans l'université aujourdhui,CRASC, p56

5. حنطابلي يوسف (2014). علم الإجتماع...هو الناطق باسم المجتمع،ورقة علمية قُدمت في الملتقى الوطني الأول حول : دور علم الإجتماع في تنمية المجتمع الجزائري ، يومي 6/5 مارس 2014 ، جامعة خنشلة

6. سي محمد(2008). دور نموذج التحليل و علاقته بالمعرفة السوسيولوجية – دراسة إمبريقية – رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علم الإجتماع المنهجية. قسم علم الإجتماع. جامعة الجزائر. 8

7. جمال معتوق(2006). علم الإجتماع من النشأة إلى يومنا هذا ، ط1، الجزائر. 5–6

8. خلف محمد الجراد:معضلات التجرسة والتأخر وأفاق التكامل والتطور،على:

/library.tebyan.net/ar/Viewer/Text/114492/7#0

9. أنور مقراني:محاولة في تأصيل مفهوم التأويل في العلوم الإجتماعية، من وهم صناعة الوقائع الساذجة إلى مهنة عالم الإجتماع،على:http://www.kalema.net/v1/?rpt=921&art

10.أمقران عبد الرزاق(2016).السوسيولوج الكاتب و الكتابة المحايدة ، في الجامعة الجزائرية و تحديات التغيير، سلسلة دراسات و ابحاث اجتماعية. منشورات دار الفائز للطباعة و النشر. قسنطينة.الجزائر.185.

11. علي ليلة (1991).النظرية الاجتماعية المعاصرة .دار المعارف .الاسكندرية. 55–56

12. مختار محمد عبد الآ، فاطمة عبد السلام شربي : مدخل إلى علم الإجتماع. دار غريب للطباعة. مصر. 39
13. محمد عاطف غيث(1982). الموقف النظري في علم الإجتماع المعاصر. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية. 19